١١- الحب والجمال

يصادف الإنسان بين ما أنشأ العرب من شعر الغزل أبياتًا تروعه منها حالة نفسية غريبة من العفة يعسر تحديد ماهيتها، فى حين كان الاتجاه الغالب على الحب ومفهومه إذ ذاك اتجاهاً حسيًّا مريضًا تحركه الشهوة وتُجدِّد نشاطَه الرغبةُ بصورة مستمرة. ولا يتسع المجال هنا للتفصيل فى أمر هذه الناحية الفريدة التى تستوقف الاهتمام فى تاريخ الفكر الإسلامى، فقد طالت المساجلة فيها بين آسين بلاثيوس وماسينيون[١]. وبحسبنا الآن أن نعلم أن هذا النوع من العفة عرفه الجاهليون واشتهرت به قبائل كثيرة منها «بنو عذرة»، ثم إننا نجد فى بغداد بعد ذلك بكثير - فى القرن العاشر الميلادى، الرابع الهجرى - عالماً فقيهاً هو داود الأصبهانى (توفى سنة ٣٩٠هـ / ٩٩٩م) يؤلف كتاب «الزهرة» الذى يعتبره ماسينيون «أول محاولة لوضع منهج شعرى للحب الأفلاطونى». وكان أهل الظاهر - أو الظاهريون، وداود منهم - يجدون فى هذا اللون من الحب الطاهر عوضًا عن الحب الإلهى الذى كان مذهبُهم ينكره، وكانوا يطلقون عليه «الحب العُذرى» نسبةً إلى أسلافهم من بدو بنى عُذرة، وقد تحمس الناس فى بغداد لدعوة العذرية هذه،

(١) أثار هذه المناقشة أول الأمر رينهارت دوزى فى كلامه عن ابن حزم فى الجزء الثالث من تاريخ المسلمين فى إسبانيا (انظر فهرس هذا الجزء) وذهب إلى أن ابن حزم عرف الحب العذرى وتذوقه لأنه - أى: ابن حزم - من أصل مسيحى، وأن عرق المسيحية نبض فيه - رغم إسلامه - وجعله ينحو منحى العفة، شاذاً بذلك - فى زعمه - عن بقية المسلمين. واستطرد ماسينيون فى هذا الاتجاه فى كلامه عن الحب الإلهى عند الحلاج، فجاء آسين بلاثيوس ودحض هذه المزاعم فى دراسته المستفيضة عن ابن حزم، وقد عرض جنزالز بالنثيا المناقشة كاملة فى كتاب «تاريخ الآداب الأندلسية» الذى تظهر ترجمته العربية بعد قليل. وقد تناولت فى تعليقاتى على ذلك الكتاب هذا الموضوع بالتفصيل.

وفى سبيلها لقى الحلاَّج حتفه عام (٣١٠هـ / ٩٢٢م) على صورة تشبه مصرع «سافونا رولا» فى فلورنسا بإيطاليا بعد ذلك بزمان طويل. وقد قُدِّرَ لهذه الدعوة أن تجد صدًى بعيدًا فى قرطبة فى عصر الخلافة، فألف ابن فرج الجيانى كتابًا على مثال «الزهرة» لداود، وكان ابن فرج من أهل الأدب أيام الحكم المستنصر، وكان شاعرًا محسنًا. ومن شعره العذرى قوله:

وطائعة الوصالِ عففتُ عنها ... وما الشيطانُ فيها بالمُطاعِ
بدتْ فى الليلِ سافرةً فباتتْ ... دَياجى الليلِ سافرةَ القناعِ
وما مِنْ لحظة إلا وفيها ... إلى فَتْنِ القلوبِ لها دَواعى
فَمَلَّكْتُ النُّهَى جمّحات شوقى ... لأجرى فى العفافِ عَلَى طِباعى
وبتُّ بها مبيتَ السَّقْبِ يَظْما ... فيمنعهُ الكعَامُ مِنَ الرَّضاعِ
كذاكَ الروضُ: ما فيه لمثلى ... سوَى نظرٍ وشمٍّ مِنْ مَتاعِ
ولستُ مِنَ السَّوائمِ مهملاتٍ ... فأتخذُ الرياضَ مِن المراعى[1]

ثم قام ابن حزم بعد ذلك بتقنين الحب العذرى وتعريف ماهيته فى رسالته البديعة «طوق الحمامة»، وكان ابن حزم أعظم من ظهر فى الأندلس من الظاهرية. وفى القرن الثالث عشر الميلادى ـ العاشر الهجرى ـ يقرر أبو المطرف الغرناطى أن «حب العراق» غلب عليه، ويعترف بأنه يجرى على سنن جميل العذرى ويقول:

أنا صَبٌّ كما تَشاءُ وتَهْوَى ... شاعرٌ ماجدٌ كريمٌ جَوَادُ
سُنَّةٌ سَنَّها ـ قديمًا ـ جميلٌ ... وأَتى المُحدَثونَ مِثلى فَزادوا[2]

ولدينا أبيات لأبى بحر صفوان بن إدريس المرسى، تذكرنا بقطعة فريدة

(١) الشقندى: «الرسالة»، برواية المقرى: «نفح الطيب»، جـ٢، ص ١٣٣، ولم يورد المؤلف الأبيات في سياق النص، وإنما أوردها مع المختارات، رقم ٣٩.

(٢) أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومى، يكنى أبا المطرف. ولد بجزيرة شقر ـ وقيل: ببلنسية ـ فى رمضان ٥٨٢هـ، وتوفى بتونس فى ٢٠ من ذى الحجة ٦٥٦هـ. وكان شاعرًا ناثرًا مؤرخاً كثير التواليف، انظر عنه: ابن الخطيب: «الإحاطة»، جـ١، ص ٦٠-٦٥.

للشاعر البدوى حمزة بن أبى ضيغم، إذ إنهما تتشابهان تشابهاً يكاد يكون حرفياً، يذكر فيها كيف قضى الحبيبان الليل جنباً إلى جنب خارج مضارب القبيلة مستظلين بمئزر يمنىّ، ثم هبط عليهما الليل وبلّلهما الندى وطلع عليهما الفجر وهما نشوانان بلذة الحفاظ العذرى:

بتنا نشعشعُ والعفافُ نَديمنا ... خمرينِ منْ غزلى ومنْ كلماته
ضَاجَعْتُهُ والليلُ يُزكى تَحْتَهُ ... نارين منْ نَفَسى ومنْ وَجناتهِ
وضَممتُهُ ضَمَّ البخيلِ لمالهِ ... أحنو عليه منْ جميعِ جهاته
أوثقتُهُ فى ساعدىَّ لأنَّهُ ... ظبىٌ خشيتُ عليه منْ فلتاته
والقلبُ يَدعو أنْ يُصَيَّرَ ساعداً ... ليفوزَ بالآمال فى ضَمَّاتهِ
حتَّى إذا هامَ الكَرَى بجفونه ... وامتدَّ فى عَضُدَىَّ طوعُ سناته
عزمَ الغرامُ علىَّ فى تقبيله ... فرفضتُ أُبدى الطوعَ منْ عزماته
وأَبَى عَفافى أنْ أُقبِّلَ ثغرَهُ ... والقلبُ مَطوىٌّ على جمراته
فاعْجَبْ لملتهبِ الجوانحِ غلةً ... يَشكو الظَّمَا والماءُ فى لهواته[1]

أى أن شعراء الإسلام، من بغداد إلى مرسية، أقاموا قرونًا ثلاثة يتغنون بالحب العذرى ويحللونه ويرسمون له المناهج! وتلك هى الحركة التى انتقلت من قرطبة إلى بروفانس (جنوبى فرنسا) لتلهم البروفنسيين ما سموه «بالعلم البهيج gaya ciencia» والتى أوحت إلى «جويدو جينزلّى Guido Guinizelli» أستاذ دانتى أسلوبه العذب الجميل. ومع هذا فعندما أخرجت مطابع فلورنسا النص الإغريقى لكلام أفلاطون رمى الناس العرب بالحسية الهمجية، ومضوا من ذلك الحين يصفونهم بذلك!

بيد أن حب الأندلسيين لم يكن كله ـ بطبيعة الحال ـ عذرياً، فمن شعرهم مقطّعات ذات قافية واحدة ببحور وأوزان طويلة يعرض الشعراء فيها علينا مشاهد

(١) أبو القاسم محمد بن أحمد الملقب بالشريف الغرناطى: «رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة»، (مطبعة السعادة ـ القاهرة سنة ١٣٤٤هـ) جـ١، ص ٥٨.

مفصَّلة من الحب الحسى، يصفون فيها ما يقع بينهم وبين المحبوب وصفاً مطوَّلاً متئداً[1]، وهم يرسلون هذه الأبيات على العادة بعد سهر عربيد مسرف فى الاستمتاع، ويلجأون إليه فى أوصاف ليالى الأنس التى يقضونها مع عشاقهم على ضفاف الأنهار، متماسكين وإياهم كما يحيط السوار بالمعصم، ويستعملونه فى الحديث عن مجالس السرور فى مواضع اللهو «كحور مؤمَّل» فى غرناطة تغنيهم البلابل وتسطع عليهم النجوم، كقول أبى جعفر بن سعيد:

رَعَى اللهُ ليلاً لم يُرَعْ بمذمِّم ... رَعَانا ووَارانا بحورِ مؤمَّلِ[2]

وقَدْ خففتْ منْ نَحْوِ نجدٍ أريحةٌ ... إذا نفحتْ هبَّتْ بريَّا القرنفلِ

وغرَّدَ قمرىٌّ على الدوحِ وانثنى ... قضيبٌ منَ الريحان منْ فوق جدول

تَرى الروضَ مسروراً بما قَدْ بَدَا لَهُ ... عِنَاقٌ وضَمٌّ وارتشَافُ مُقبَّلِ

ثم ما هو المثل الأعلى لجمال المرأة كما يصوِّره لنا الشعر الأندلسى؟ إليك أبياتًا لحازم القرطاجنى فى قصيدته «المقصورة» تصوِّر لنا هذه الناحية أصدق تصوير:

إنْ تَنحدرْ فِى وَصْفِهِ فإنَّهُ ... بدرٌ على غصنٍ على دعْصٍ نَقَا

وإنْ تَسَاميتَ، فقلْ دعْصُ نَقاً ... عليه غصنٌ فوقَهُ بدرُ دُجَى

فَرْعٌ أثيثٌ فوقَ فَرْعٍ ناعمٍ ... قَدْ ماسَ من سكرِ الشبابِ وانثنَى

وغُرَّةٌ شَبَّ بقلبى نورُها ... نارًا فأمْسَى للشجونِ مُصْطَلَى

وناظرٌ يمنَعُ كلَّ ناظرٍ ... مِنْ وردِ خَدٍّ ناضرٍ أنْ يُجتنَى

---

(١) ترجمت بلفظ «متئد» هنا اصطلاح au ralenti الفرنسى الذى استعمله المؤلف هنا. والمراد به لون من التصوير البطىء للمشاهد يعرفه المشتغلون بالخيالة (السينما).

(٢) «حور مؤمَّل» و «نجد» أشهر أماكن اللهو والسرور فى غرناطة، ويكتب فى بعض الأحيان «حوز» بالزاى، وقد صوبه جايانجوس وجعله بالراء، انظر:

Gayangos, Moh. Dyn. in Spain. I P. 351 note 86.

وأثبت ليفى بروفنسال صحة هذه القراءة فيما نشره من «مذكرات الأمير عبد الله»: «انظر ثبت المراجع» وانظر فهرس هذه المذكرات.

ومَارِنٌ أَشَمُّ قَدْ تَنَزَّهَتْ ... أَوصافُهُ عَنْ خَنَسٍ وعَنْ قَنَا
خَطٌّ قويمٌ بين قَوْسَيْ حاجبٍ ... وشارِبٍ كلاهما قد انحنى
ومبسمٌ يزدحمُ البرقُ بهِ ... إذا انبرى ما بينَ ظَلْمٍ ولَمَا
وعنقٌ كأنَّهُ جيدُ طلًى ... قد عطفَ الليتَ التفاتًا وعَطا
وصحنُ صدرٍ مُنِتٌ رُمَّانَتَى ... حُسْنٍ، وبطنٌ منطوٍ طيَّ الملاَ
ومعصمٌ شكا السُّوارُ ريَّهُ ... لما تشاكتْ رَيَّ ساقيه البُرا
وراحةٌ تَخالُها مخضوبةً ... إذا بها عن خده اللحظَ اتَّقَى
ومَعْطِفٌ ليْنٌ وخصرٌ ذابلٌ ... ظامٍ وردف ناعمٍ قد ارتوَى
وفخذانِ آخذانِ فوقَ ما ... تَمَّا به مِنَ النعيمِ المُغتذَى
يَكادُ يَبدو خصرُهُ منخزلاً ... منْ ردفه إذا تمشَّى الخَيْزَلا
وقدمانِ لبستْ كِلْتَاهُمَا ... مازَانَهامِنَ الجمالِ المُحتذَى[1]

ولقد كان التباين الظاهر بين الردف الثقيل والخصر النحيل ـ فى واقع الأمر ـ أكبر مواضع جمال الجسد الأنثوى عند شعراء الأندلس. وفوق هذا الجسد المتموِّج المتدثر فى ثياب غالية مترفة ذات ألوان باهرة مطرَّزة بالذهب، يتجلى الوجه الوردى فى جمال القمر، تزينه غدائر الشَّعر مصففة فوق الجبين ومرسلة على جوانب الوجه، ملتوية كأنها ذيول العقارب، ويتبدى سحر الفم تضيئه لآلئ الأسنان المنظومة كأنها بتلات الأقحوان. أما ألوان الشَّعر والبشرة المفضَّلة عندهم فأمر فيه خلاف، وإن كنا نعرف أن بنى أمية الأندلسيين كانوا يفضلون الشقراوات؛ ويصوِّر لنا ذلك كله أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن الناصر، الملقب بالطليق:

غُصْنٌ يهتزُّ فى دعْصِ نَقَا ... يَجتنى منْهُ فُؤادى حُرَقَا
باسِمٌ عَنْ عِقْدِ دُرٍّ خِلْتُهُ ... سَلَبَتْهُ لِلثَّاهُ العُنُقَا

(١) الشريف الغرناطى: «رفع الحجب»، جـ١، ص ١٨٥-١٨٨

سَالَ لامُ الصُّدْغِ فى صفحته ... سَيَلانَ التِّبْرِ وَافَى الوَرَقَا
فَتناهَى الحسنُ فيه، إنما ... يَحْسُنُ الغصنُ إذا ما أَوْرَقَا
رَقَّ منْهُ الخصرُ حتى خلتُهُ ... منْ نُحول شَفَّهُ قَدْ عُشِّقَا
وكَأَنَّ الردفَ قَدْ تيَّمَهُ ... فَغَدَا فيه مُعَنًّى قَلِقَا
ناحلاً جاورَ منهُ ناعماً ... كَحبيبى ظَلَّ لى مُعتنقَا
عجباً إذْ أشبهانا كيفَ لَمْ ... يُحْدِثا هَجْرًا ولَمْ يَفترِقا[1]

ويضم هذا الشعر أبياتًا كثيرة تتحدث عن الميل إلى الغلمان وحب المذكر. ويوصف الغلام فى بعضها باخضرار الأصداغ ومنابت اللحية، إما لأنهم كانوا يرون أن ذلك يزيد جماله، أو لأن تلك الشعرات النابتة كانت تعدُّ من مكملات الجمال. وقد خلَّف لنا كتَّابُ العرب ثروة عظيمة فى هذا الباب الذى يبدو لنا عقيماً لا جدوى فيه، بل خلَّفوا لنا فيه كتبًا كاملة مثل: «ترك الإعذار فى وصف العذار» للنواجى، و «طول الاعتذار عن حب العذار» للمنهاجى، وكلاهما مخطوط فى مكتبة الإسكوريال. وهناك عدد آخر من الكتب فى هذا الموضوع، تتحدث عنه بشتى الصور التى نجدها فى الأدب العربى، وإن كانت أقلَّ ما فيه قيمة.

وذلك كله إنما يدل على ما كان يتوفز فى قلوب أولئك الشعراء من إعجاب مفرط بالجمال البدنى المحسوس، وربما كان ذلك من الخصائص المميزة للعقلية العربية، ورثته فيما ورثت من مشاعر البدو وميولهم، شأنه فى ذلك شأن الحب العذرى الذى انحدر من البدو إلى الأجيال المتوالية عن طريق العرب والمسلمين. وقد كان الوضع الخاص للمرأة فى المجتمع الإسلامى سببًا فى قلة فهم الناس للجانب النفسى من حياتها وخصائصها، فلم يعد المحبون منهم يستشعرون من جمالها إلا الحسى الملموس، أى: الصورة البدنية، فاندفعوا فى الإعجاب بها

(١) ابن الأبار: «الحلة»، ص ١١٦ ولم ترد ترجمة القطعة فى النص، وإنما أشير إلى رقمها فى المختارات، رقم ٤١.

اندفاعًا عنيفًا لا يُردُّ، ولم يجدوا ما يبرِّرون به هذا الاستمرار فى الكلام فى هذه الميول والأوصاف المملة إلا بتنميقها وإرسالها فى أساليب مونقة متنوعة مزينة بالزهور مرصعة بالدرر والياقيت، وأضفوا على الجسم الجميل ثوبًا بديعًا نسجوه من كل ما عثروا عليه فى الرياض.

ويصور «الخيال الشاعرى العربى» المحبَّ عليلاً ناحلاً، فيبدو لنا مطلعُ القصيدة وكأنه الفصل الأول من مسرحية غنائية يشترك فيه فريق غير منظور من المنشدين يستنكرون من الشاعر غرامه فيمضى يعتذر عما هو فيه، ويبدأ كلامه بقوله: «يقولون... فقلت لهم»، ومن أمثلة ذلك قول الرصافى:

قالوا، وقد أكثروا فى حبه عَذْلى: لولمْ تَهِمْ بمُذَال القدر مُبتذل
فقلتُ: لو كانَ أَمْرى فى الصبابة لى لاخترتُ ذاكَ، ولكنْ ليسَ ذلكَ لى
عَلَّقتُهُ حَبَبِىَّ الثغر عاطرهُ حُلوَ اللَّمى ساحرَ الأجفانِ والمقلِ
غُزَيِّلٌ لم تزلْ فى الغَزْلِ جائلةً بَنانُهُ جَوَلانَ الفكرِ فى الغَزَلِ
جَذلانُ تلعبُ بالمحواكِ أنملهُ على السَّدَى لعبَ الأيامِ بالأَمَلِ
ضَمَّابِكَفَّيهِ أو فحصاً بإخمصه تَخبُّطَ الظَّبْيِ فى أشراكِ مُحتبَلِ[1]

وقد كان هذا القالب الرمزى، الذى جوَّده عمر بن أبى ربيعة فى المشرق (توفى سنة ٩٤هـ / ٧١٢م أو ١٠١هـ / ٧١٩م)، عظيمَ الذيوع كثير الاستعمال فى الأندلس.

* * *

(١) الشقندى: «الرسالة»، برواية المقرى: «نفح الطيب»، جـ٢، ص ١٣٦. والأبيات للرصافى يتغزل فى غلام حائك.